الكـــــوفـة

في الادب النجفي المعاصر

الأستاذ الدكتور
محمد حسن علي مجيد الحلي
الكلية الاسلامية الجامعة
النجف الاشرف

الكوفة في الادب النجفي المعاصر

الأستاذ الدكتور
محمد حسن علي مجيد الحلي
الكلية الاسلامية الجامعة
النجف الاشرف

ليس من الممكن التحدث عن عموم تراث النجف الادبي الذي ذكر الكوفة ... لان الوشائج بين الكوفة والنجف اوسع من ان تحشر في بحث او توجز في بيان سريع. فالكوفة احدى حواضر العرب الكبرى في عصور النهضة والنجف خليفتها ووارثة نهضتها ومجدها وهما كالبلاد الواحدة، والعلاقة بين ادباء النجف والكوفة متينة، سواء في العصر الحديث او فيما سبق من العصور ، وانما سنكتفي من هذا وذاك باشارات سريعة بما يناسب حجم هذا البحث. لان الأدب النجفي المعاصر تناول الكوفة كثيرا جدا، وانه كامن في كل مصادر الادب النجفي ودواوين شعرائه المعاصرين، ومجاميعه الشعرية المطبوعة والمخطوطة ، وان جردها كلها، وإيراد كل ما يتناول الكوفة في كل مصادره فيها يؤلف اكبر بحث يمكن ان يقع في كتاب ضخم وعليه فإننا سوف نقتصر على المشهور والطرف والمهم منه...

فمن تلك الوشائج المتينة بين ادباء النجف والكوفة في العصر الحديث ان الشاعر الكوفي المرحوم (الشيخ علي البازي)، ابن الكوفة وشيخ اول التاريخ الشعري في العراق في زمانه والمتوفى سنة ١٩٧٣م، قرّظ وأرّخ اضخم موسوعة ادبية ضمن تراث النجف الشعري،

وشعرائها لمؤلفها المرحوم (الشيخ علي الخاقاني) المتوفى سنة ١٩٧٥، والموسومة (شعراء الغري) التي وقعت في اثني عشر جزءاً. قد قرض الشيخ البازي وأرخ الجزء الاول من تلك الموسوعة، والذي صدر سنة ١٣٧٢هـ في مقطوعة شعرية طريفة طويلة، قال فيها:

إن (عليٍّ) القدرِ في سعيه ... بكل فضل ومديحٍ حري
وافى بجهود له قد سما ... شأوا على العيوق والمشتري
مفخرة الاجيال أضحى الا ... يا أدباء العصر فيه افخري
أحيا لنا حاضر اثارنا ... ومن مضى من سالف الاعصر
وما انتقت بنات افكارهم ... في سائر الاوزان والابحر
في شعراء النجفيين قل: ... أرخّتُ: (بل في ادباء الغري)[1]

ومن شعراء الكوفة القدماء الذين ذكروا النجف وتاقوا الى بقعتها المباركة الشريفة: الشاعر العباسي (علي بن محمد العلوي الحماني الكوفي) الذي قال تشوقا:

فيا أسفي على النجف المعرى ... ووادية منوّرة الاقاحي
وما بسط الخورنق من رياض ... مفجرة بافنية فساح
و وا أسفا على القناص تغدو ... خرائطها على مجرى الاشاح[2]

وهذا شاعر آخر يصف النجف وظباءها وأوانسها بهذه الأبيات الطريفة التي تتداخل فيها الحنين ووصف الطبيعة بالغزل والتشوق ، حين يقول:

وبالنجف الجاري اذا زرت أهله ... مهاً، مهملات ما عليهن سائس

خـرجن بحـب اللـهو في غـير ريـب عفـائف، بـاغي اللـهو منهن آيس
يردن اذا ما الشمس لم يخشَ حرها ظـلال بسـاتينٍ جنـاهن يـابس
اذا الحـرُّ آذاهـن لـذن بفينـة كمـا لاذ بالظـل الظبـاء الكـوانس
لهـن اذا مـا استعرضـتهن عشـيةً علـى ضـفة النهـر المليح مجـالس
يفـوح عليـه المسـك منـه وان تقـف تحدَّث، وليست بينهن وساوس[٣]

ويبـدو هنـا ان الشـاعر يمـد أرض النجـف الى الكوفـة، ويعـد الكوفـة والنجف بلاداً واحداً، فهـا هـو الشـاعر يتحـدث عـن نهـر النجـف وبسـاتينها، ونحـن نعـرف ان النجـف القديمـة والحديثـة ليسـت بـذا نهـر، الا اذا امتـدت الى الكوفة وكونت بلدة واحدة...

قال السهيلي في تفسير كلمة (النجف) : (وبالفرع لعينان يقال لاحدهما الربى، وللاخرى النجف تسقيان عشرين الف نخلة، وهو بظهر الكوفة كالمسناة تمنـع سـيل المـاء ان يعلـو الكوفـة ومنابرهـا)[٤]، وكـان ظهـر الكوفـة الـذي هـو النجف كما اصطلح على ذلك الجغرافيـون يـدعى (خـد العـذراء)، لانـه ينبـت الشيح والقيصـوم والشـقائق والخزامـى والاقحـوان وغيرهـا مـن نبـات الارض والبر والصحراء، الذي هو اقرب الى طبيعة ارض النجف ومناخها فشُبهت به، ولكون النجف ذات تربة طيبة ومناخ حسن وهواء نقي اتخذها الملوك منذ اقـدم العصـور وتنزهـا لهـم ومصـيفاً، فقـد اتخـذ منهـا الساسـانيون ثـم المنـاذرة ثـم العباسيون محل استراحة لهم واستجمام فبنوا فيها القصـور الشـامخة الضـخمة، منها قصر الخورنق والسدير المشهوران، و منها قصر ابي الخصيب مرزوق بـن ورقـاء مـولى المنصـور، وكـانوا يـأتون اليـه وقـت الربيـع وموقعـه قـرب السـدير يشرف على النجف، وكـان الى جانبـه ديـارات للنصـارى، وكـان هنـاك قصـر

اخر، يعرف بـ(الابيض)، يقال انه احد ابنية الخليفة هارون الرشيد، ويظهر انه واسع المساحة يرتبط من جهة بالحيرة، ومن الجهة الاخرى بالكوفة، وقد قال فيه بعض شعراء الكوفة:

يـــا دار غيّـــر رسمهـــا	مـــرُّ الشـــمال مـــع الجنـــوب
بـــين الخورنـــق والســـدير	فـــبطن قصـــر ابـــي الخصـــيب
فالـــدَير فـــالنجف الاشـــمّ	خيـــار اربـــاب الصـــليب[٥]

قلنا: ان الكوفة والنجف كانتا تؤلفان بلداً واحداً، فمدرسة النجف في اللغة والنحو في العصور المتأخرة - ان صحّ افتراض وجود مدرسة نجفية في اللغة والنحو - هي مدرسة الكوفة القديمة المشهورة في اللغة والنحو العربي، التي إحدى مدرستي العلوم اللغوية التأسيسية في العراق، بل في النحو العربي كله، هما مدرستا الكوفة والبصرة المشهورتان.

والشخص الكوفي - في الوقت الحاضر- يقول (انا نجفي) حينما يُسأل في مكان اخر عن بلاد ينتسب اليه او عن مدينته، ويفخر بهذا الانتساب ويكون معروفا لدى الناس، لما للنجف من مكانة علمية ودينية وحضارية مرموقة، باعتبار الكوفة والنجف بلداً واحداً ... لذلك كونت الكوفة الرئة التي تتنفس منها النجف وكونت الكوفة ومناظرها الطبيعية ونهر فراتها وشواطئها ورياضها ومياهها وزروعها وبساتينها جنّة النجفيين واماكن راحتهم، ومحطات سياحتهم، ففيها يتنزهون شهور السنة كلها، ويقضون فيها اسعد الاوقات وامتع الساعات بعدد ايام العمل وايام الارهاق، واليها تهفو نفوسهم كلما سنحت فرصة او دعا للذهاب اليها داعٍ منهم فيقيمون فيها ليالي وايامـاً، وعلى شواطئ نهرها العريض يسرحون، ويمتعون النظر ويريحون

الجسد، ويجددون فيها نشاط الفكر، ويأكلون ويشربون وعلى شاطئ نهرها كثيرا ما يفطرون في رمضان، وعلى شواطئه وفي مائها العذب المتسلسل الرقراق يقولون الشعراء ويتناظرون ويصفون ويطنبون، لذلك وجدنا في الادب النجفي المعاصر ذكرا كثيرا للكوفة وايامها، ووصفا ممتعا لنهرها وبساتينها ونواعيرها. حتى عرفت بعض قصائدهم باسم (المائيات) تلك التي ينظمونها على شط الكوفة وعند مياهها، ا تحتوي على ذكر الماء والوانه ولذة العوم به، او عندما يأخذ أحدهم على الاخر ان يعيّن له قافية ووزناً وموضوعاً فيطلب منه ان ينظم حوله بيتاً من الشعر وهو تحت الماء ولايخرج منه الانظمة وينشده حال خروجه منه، فاذا تعسر عليه ذلك خسر الرهان، الذي هو في اغالب قدح شاي حار ممتع او اكلة شهيّة، وقد وجدت كثيرا من هذا النوع في الادب النجفي، وهو اقرب الى المسابقات في الشعر والمساجلات في مياه الكوفة ومناظرها واجوائها وبساتينها، وأيام اقامتهم فيها، والساعات الممتعة التي قضوها، لجماعات كثرة وعدد كبير من ادباء النجف، نذكر منهم على سبيل المثال.

الجماعة التي ضمت يوما ما في الكوفة من شعراء النجف: الشيخ جواد الشبيبي، والشيخ هادي ال كاشف الغطاء، والسيد علي العلاق، والسيد عبد الحسين الجواهري، والسيد عبد الحسين الحلي، والسيد رضا الاصفهاني وغيرهم... وكان هذا النوع من الادب النجفي في الكوفة واجوائها يمتاز من غيره بكثير من الظرف والفكاهة وحسن النظم وسلاسة التعبير ورقة الخيال وطرافة المعاني وجمال الصورة، وصدق الوجدان، ولم يكن هذا النوع من الادب يختص بالشعر النجفي وحده، انما بنثرها ايضا، فقد وصف شعراء النجف في كتاباتهم ورسائلهم الكثير من طبيعة الكوفة من ماء وهواء وانواء

واجواء، وطيور وازهار وبساتين وفواكه، لاسيما بعد ان يمر زمن على جلساتهم فيها، وتنقضي ايام الانس فيها فيحنون اليها، وتبقى ذكرتها عالقة في نفوسهم واذهانهم حية ممتعة، فيهفون اليها ويتطلعون لأمثالها، فان استطاعوا وحققوا فذلك غاية المنى وان سارت فيهم عجلة الزمن وتفرقت جموعهم، وحالت بينهم الايام والمشاغل دون ذلك، رجعوا الى ذكرياتها، وحنوا الى ايامها وتراسلوا شعرا او نثرا حول لذيذ متعها، ومن ذلك - مثلا - ما جاء في احدى رسائل الشيخ جواد الشبيبي (ت عام ١٩٤٤م) لصديقه الشيخ هادي ال كاشف الغطاء يذكر فيها ليلة من ليالي الادب ومجالسه في الكوفة، ولسفرة نهرية قاموا بها في شط الكوفة قبل زمان عاموا فيها على وجه الشط بسفينة شراعية ، جاء فيها قوله:

((وبعد: فهل بلغك ان ليلتنا بالجسر (ويقصد جسر الكوفة او الكوفة نفسها كما كان يسميها النجفيون حينذاك)، اذكرتنا ايام الجزيرة الخضراء (ويقصد بها جزرة في وسط شط الكوفة كانوا يعبرون اليها او يقيمون فيها) وجلوسنا تحت شعاع القمر، .. وفي صبيحتها حللنا زورقا جرى من الفرات على مثل لجة بذلكَ، وخفقت عليه ذؤابة شراع اوهمتنا انها مقتطفة من فضل علمك، حتى اوصلتنا جدول الفرات الى بحر لو قذف اللؤلؤ فيه وكان عذبا لخلته بحر حلمك المتلاطم...))[٦]

هذا الوصف الوجداني يدل على تعلق نفوسهم بالكوفة وذكرياتها التي طبعت ايام الكوفة وطبيعتها ومياهها وفراتها وخضرتها ونخيلها في نفس هذا الاديب النجفي ولدى غيره من ادباء النجف، حتى كونت رافدا مهما من روافد التراث النجفي المعاصر...

ولكن الشيخ الشبيبي لم يسطر ذكرياته وخواطره نثرا فحسب، انما ظل

يله جبها شعرا، ويذكر الكوفة وايامها ومفاتن جمال الطبيعة فيها ن اشجار و كروم و خرير الجداول واصوات النواعير وهدير الموج وهو جالس تحت ظلال النخيل وعثاكيل التمر المتهدلة، ... ومن ذلك وصفه لمنظر بقي في ذهنه لواحدة من سفراته الى الكوفة واقامته فيها، حتى ضمنها في قصيدة طويلة، بعث بها الى صديقه الشيخ عبد الحسين الحلي، الذي كان قد شاركه تلك الايام الزاهية الخوالي ومباهجها، والى شلة الانس التي كان عقدها منضوما ايام ذاك، وكان الشيخ الشبيبي بعد قد سكن في بغداد ... قال في مطلعها:

ميلوا الى الوصل يا اهل الوفا ميلوا فالقطع منكم بدا والحبل موصولُ

وبعده بأبيات يعرج على الذكريات فيقول:

أهل الفرات اهل يرضى ضميركم الـ عاني الرسوم ب هان يقرن النيلُ
تحير الفكر هل كانت زوارقه اجرى واثبت من تلك الاساطيرُ
وفي المنافي بيوت بين سكانها للركب حلوا الى التدريس او ميلوا
في كل يوم لهم عيد وعادتهم ان تنحر الخيل والكوم المراسيلُ

والوجوه التي ضمها ذلك الجمع من الأحبة ايامئذٍ فيقول:

وللكروم وراء القصر مثمرة عفص الجمود وللاعشاب ترحيلُ
والورق تهدل في الاغصان ساجعة وللعناقيد في الاوراق تهديلُ
وفتية كسيوف الهند جوهرها على المضامين قبل الطبع مجهولُ
لاتمسك المال ايديهم لجودهم الا كما تمسك الماء الغرابيلُ
ان فاكهوا فرزين الحلم تحمله إخلافهم، وهو باللذات مشغولُ
اصولهم شبتات ان دوحهم له من المجد تفريع وتأصيلُ
غذاء روحي غذوا والنفس ليس لها الا الفكاهة مشروب ومأكولُ

....

مباني الجسر ناجيني على بعد فالقلب عندكِ رهن الحب متبول
هل السواقي على عهدي مناهلها فبعضها مغمد والبعض مسلول
وهل عرائش ذاك النخل مرسلة على ترائبها تلك العثاكيل
احبابنا بالحمى ان ضن وابله عليكم فركام الدمع مبذول[٧]

لكن ضن الشيخ الشبيبي الى الكوفة لا ينقطع، اذ هو تترى عليه الانباء بأن الشلل التي عهدها ما تزال تنزل الكوفة وبساتينها وشواطئها وان مجالس الاصحاب فيها عامرة بجلاّسها، فيهيج به الحنين اليها والشوق اليها ولمرابعها مرة اخرى، فيكتب لهم متلهفا عليهم، ويخبرهم ان سلوانهم وسلوان مجالسهم عاد من المستحيل عليه، وان فراقه الاضطراري لهم هو فراق الروح للجسد، ثم يعاتبهم على نسيانهم له، وقد كان هوانس مجالسها وقطب رحاها ومركز دائرتها وزينة شبانها، لنسمعه في هذا الجزء من قصيدة اخرى يقول:

تناسيتم عهد الاخاء كأنما يسير حثيثا في دمائكم الهجرُ
وجدتم سبيل الهجر سهلا وانه عليّ اذا ما رمت اسلكه وغرُ
ولولاكم لم يملك الشعر مقودي واني من يلقي له المقودَ الشعرُ[٨]

كما انبرى الشيخ جواد الشبيبي في وصف مرابع الكوفة وجمال الفرات فيها في قصائد كثيرة، مما ين عن تعلق شديد بتلك المغاني، وحنين كبير الى ايامها وانسجام مع اخبارها، ولكن باسلوب يغلب عليه طابع الجزالة، ومفردات البداوة ومعانيها وقوتها وألفاظها، يزجها في بعض قصائده عندما يعصف به الشوق وتأخذه الذكريات، وحين تهفو اليه نفسه، حين يقول في واحدة منها:

خـذو اثـر المرتـاد فـالمربع النضـر ... بحيــث الحيــا الهتــان ســبله الجســرُ
وميلـوا عـن الحـي الحـلال فدونـه ... شــغار المواضــي والردينيــة الســمرُ
سقى الغيث ربعا كنت نشر شميمه ... ولا لــف الا عــن عوارضــك النشــرُ
وغـادي النـدى نـور الجزيـرة مونقـا ... يشــب بقلــبي جمــرة اللاعــج الــذكرُ
وظــــلا تفيأنــــاه فليتــــه ... يعــود علينــا بالصــفا ذلــك العصــرُ[٩]

كما وصف الكوفة وايامها ومجالسها والخيام التي يضربها النجفيون على شاطئ نهر الكوفة شعراء كثيرون، منها مثلا وصف الشاعر الشيخ محسن الخضري لخيمة ضربها احد وجهاء النجف على ساحل نهر الكوفة وهي طريفة يمكن مراجعتها في ديوانه[١٠] .

وقد كان لوسائل النقل التي ينتقل بها النجفيون من النجف الى الكوفة في ذهابهم وايابهم نصيب من ذلك الوصف والشعر النجفي، وما في تلك الوسائل وفي التنقل من متعة، مما فيها من اعجاب ويصدرون عنها من خيال حين يشقون البر - في ذلك الوقت - بين المدينتين في السياحات الباكرة عند الذهاب، او في ساعات الغروب الساحرة عند الاياب، وهم يتابعون مناظر الطبيعة الفاتنة ومتغيراتها، والشمس ومسارها، والارض ومرتفعاتها وانحداراتها وسهولها ووديانها وخضرائها وجردائها، هم على ظهور الدواب او راجلين، او يمتطون العربات التي كانت تدفع باليد، او تجرها الحيوانات او وصف عربة السكة الحديد...

فهذا الشيخ جواد الشبيبي يصف سكة الحديد او ما كانت تسمى (عربة الترام) - او التراموای) التي كانت توصل بين النجف والكوفة والتي كانت الحكومة العثمانية قد انشأتها بينهما سنة ١٩٠٧م، وهي شركة حكومية - اهلية او ما تسمى اليوم بالشركات (المختلطة)[١١]، وهي عربات تسير على

السكة الحديد وتجرها الخيول، والتي بقيت تنقل الناس بين البلدتين حتى عام ١٩٤٥م الذي أُلغيت فيه بعد دخول السيارات الى العراق، والتي لم يكن في العراق كله واسطة نقل مثلها غير سكة الحديد التي كانت تسير بين بغداد والكاظمية، والتي انشأها الوالي مدحة باشا عندما كان واليا على العراق بين سنتي ١٨٦٩-١٨٧٢م، وقد كانت الواسطة وسيلة متطورة للنقل في وقتها اواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين حيث كانت وسائل النقل الاساسية حينذاك هي بواسطة الحيوانات من الحمير والبغال وبعض الدواب وبعربات اليد، حيث كانت السيارات لم تدخل بعد الى العراق... لذلك وصف الشيخ الشبيبي بانبهار شديد حين ركبها اول مرة بين النجف الى الكوفة، في قصيدة طريفة يغلب عليها طابع التورية والصورة والخيال ومما جاء فيها:

مـــابين غايـــة ســـراها ومبدئـــه الا بمقـــدار قـــول الســـائق انـــدفعي
تحملـــت وهـــي حبلـــى في ثمانيـــة صحا فقيل لها قبل الغروب ضعي[١٢]

لان السفر بين الكوفة والنجف في ذلك الوقت كان يستغرق نهارا كاملا او تسع ساعات على الاقل بينما المسافة بين المدينتين لا تزيد عن ثمانية كيلو مترات تقطعها السيارة الان في ربع ساعة، اما الوصول على الاقدام فكان يستغرق حوالي يوم ونصف يوم، لذلك جاءت هذه التورية في بيتي الشبيبي...

وتمتلئ دواوين وشعراء النجف في عصر النهضة بشعر كثير في الكوفة وذكرها لامجادها، وما فيها من تاريخ علمي وسياسي مجيد، وبما انجبت من علماء وادباء ومن كبار الشعراء، وليس من جديد القول ان نذكر ان (ابا الطيب المتنبي) اكبر شعراء العربية وشاعرها الخالد هو كوفي المولد والنشأة والهوى، فدواوين الجواهري وعلي الشرقي ومحمد رضا الشبيبي واحمد

الصافي تمتلئ بذكر الكوفة وايامها، وللشعراء النجفيين الكثيرين الذين ترجم لهم المرحوم (علي الخاقاني) في سفره الشعري الضخم الموسوم (شعراء الغري) في اجزاءه الاثني عشر...

ولكننا هنا نكتفي برائعة من روائع الشعر النجفي في للشاعر النجفي الفذ الشيخ علي الشرقي (ت ١٩٦٤م)[١٣] الذي كثر ذكر الكوفة في ديوانه ، ولاسيما في قصيدته بعنوان (صوت الكوفة) التي نظمها سنة ١٣٥٤هـ/١٩٣٦م بمناسبة المهرجان الالفي الذي اقيم في دمشق احياء لذكرى الشاعر العربي (الكوفي) الكبير ابي الطيب المتنبي، وقد كان لهذه القصيدة صدى كبير في ذلك المهرجان، والقصيدة فضلا عن احيائها لذكرى شاعر من اكبر شعراء العربية، الذي انجبته الكوفة ايام زهوها العلمي وازدهارها الادبي في القرن الرابع الهجري، وذكرت مواقفه الشجاعة وبطولاته، وفروسيته وحكمته الخالدة فانها تتحدث ايضا عن مجد الكوفة في هذه الرائعة النجفية، وعن منبر الكوفة العالي في العلم والادب، وايام تألقها الحضاري حين كانت البلدان تنهل من مواردها وترتشف من مناهلها وعلومها .. حين يقول في قسم منها:

لكوفة الجند وهي المنبر العالي ... صوت يردده تاريخنا الغالي
ترن في مبهمات النفس نغمته ... مثل المفاتيح قد رنت بأقفالِ
كأنه جرس الارواح تقرعه ... بين التهاليل اجيال لأجيالِ
من الجزيرة في الافاق مفتخر ... صوت يهيب بأحرار وابطالِ
ضرب من المثل العليا يخلدها ... قول حكيم فصارت ضرب امثالِ

الى ان يقول:

منارة الادب اللماع ما برحت ... وضاءةً بشعاع منه جوالِ

رســـالة المجـــد للشـــهبا ترتلـــها هذي النوادي بتكريم واجلالِ[١٤]

اما العلاقات بين ادباء النجف وادباء الكوفة في العصر الحديث، فهي كثيرة والوشائج بينهم متداخلة متصلة، منها - مثلا- هذه المناظرات والمحاورات والمنابزات الادبية، والنكت والفكاهات التي قامت بين شعراء النجف وشعراء الكوفة، نذكر منها الواقعة الطريفة التي اشتبك فيها بعض شعراء النجف مع الشاعر الكوفي المرحوم (الشيخ علي البازي ت ١٩٧٠)، حين طلب هذا الاخير من السيد (حسن الجواد) قائمقام النجف يفي احدى زياراته للكوفة وكان معه رهط من وجهاء النجف وشعرائها، طلب من القائمقام مشروعا لماء الكوفة، ولكـــن الشـــاعر النجفـــي المرحـــوم الشـــيخ محمـــد علـــي اليعقـــوبي (ت ١٩٦٥) الذي كان في معية القائمقام اراد ان يداعب صديقه الشاعر الشيخ البازي، فطلب من القائمقام ان لا يلبي طلب البازي، ويغفل مشروع ماء الكوفة، فقال له شعرا:

لا تعر اهل الكوفة الجند سمعا ودع القـــوم يهلكـــون ظمـــاءا
كيف تسقي (يا ابن الحسين) اناسا منعـــوا جـــدك الحســـين المـــاءا

لكن الشعراء النجفيون الذين كانوا في معية القائمقام لم يكتفوا بتحريض زميلهم النجفي ضد الكوفة واهلها، بل زادوا في الطين بلة حين انبرى منهم الشاعر النجفي المرحوم السيد محمد الحبوبي مشطرا بيتي اليعقوبي السابقين مؤكدا في تشطيره للبيتين وجوب حرمان (اهل الكوفة) من الماء، والغرض هو زيادة في مداعبة زميلهم الكوفي وإغاظته ورغبة في اثارته، حين قال:

(لاتعر اهل الكوفة الجند سمعا) خطبـــاء جـــاؤوك ام شـــعراءا

طلبــوا المــاء بعــدما فصــلوها (ودع القــوم يهلكــون ظمــاءا)
(كيف تسقي يا ابن الجواد اناسا) قـد سـقوا مـنكم السـيوف دمـاءا
(حســنٌ) لا تجــد بمــاءٍ لقــوم (منعــوا جــدك الحســين المــاءا)

وهنا استشاط الشاعر الكوفي غضبا، وثارت ثائرته، واهتاج حنقا، فشمر عن ساعد الشعر، واندفع مفندا ما ادعاه مناوؤوه، فعكس تشطير الحبوبي، ومشطرا بيتي اليعقوبي، ورادا على الاثنين من خصمائه، ومخاطبا القائمقام:

(لاتعر اهل الكوفة الجند سمعا) عجبــا منــك يطلبــون جفــاءا
ويقولــــون لاتجــــبهم بشــــيء (ودع القــوم يهلكــون ظمــاءا)
(كيف تسقي يا ابن الجواد اناسا) وســـواهم يكابـــدون العنـــاءا
أوَ ترضـى تعـدّ مـن حـزب قـوم (منعــوا جــدك الحســين المــاءا)

وهنا انضم الشاعر النجفي المرحوم الشيخ عبد الغني الخضري لركب المحاضرة وتحضر للرد على الشاعر الكوفي زيادة في اغاضته صديقهم البازي ورغبة في المزيد من اثارته ومداعبته، فقال مشطرا بيتي اليعقوبي ايضا:

(لاتعر اهل الكوفة الجند سمعا) حيـث كـانوا للمرتضـى اعـداءا
منعــوا الســبط بــارد المــاء عــذبا (ودع القــوم يهلكــون ظمــاءا)
(كيف تسقي يا ابن الجواد اناسا) كـــم لظـــة قـــد قتّلـــوا ابنـــاءا
افتســـقيهم وهـــم مـــن قـــديم (منعــوا جــدك الحســين المــاءا)

لكن الشاعر الكوفي لم يهن ولم يضعف، ولم يترك ساحة النزال، حتى لو وجد نفسه وحيدا في المعركة، فاستبسل في الدفاع عن رأيه، والذب عن مدينته، والمطالبة بحقوق بلدته واجابة مطلبه، فانبرى لخصومه يردهم ردا عنيفا

وفنّد اراء متحديه، قارعا الحجة بالحجة وداعما الدليل بالدليل يشطر ابيات اليعقوبي والخضري، ويزيد عليهما قائلا:

لاتعر اهل الكوفة الجند سمعا ... هكذا الشيخ قالها اغراءا
تضنها الادعياء صدقا فقالوا ... حيث كانوا للمرتضى اعداءا
منعوا السبط بارد الماء عذبا ... من بأظمائنا يرون الرواءا
فترفع عمن يقول اجتنبهم ... ودع القوم يهلكون ظماءا
كيف تسقي يا ابن الجواد اناسا ... دون قوم عدّتكم شفعاءا
وسواهم كما علمت عنادا ... كم لظة قد قتّلوا ابناءا
افتسقيهم وهم من عرفتم ... عاضدوا خصمكم وخانوا الوفاءا
طلبوا منعنا اقتداءا بمن قد ... منعوا جدك الحسين الماءا[١٥]

ان هذه المنابزات الادبية والمناظرات الشعرية كانت كثيرا ما تقع بين سكان المدن المتجاورة، فلا غرابة اذ وجدنا مثل هذه المماحكة والمضاحكة والمناظرة بين هؤلاء الشعراء الفكهاء، وان كثيرة غيرها ما كانت تحدث بين شعراء النجف انفسهم وادبائها في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، او بين شعراء النجف و ادبائها وبين شعراء الكوفة وادبائها، ورأينا مثلها في الادب النجفي المعاصر ما وقع بين ادباء النجف وشعرائها، وادباء (الحلة) وشعرائها يضا لقربهما عن بعضهما ايضا، فاذا اضفنا الى هذا كله، عامل اتسام الادب النجفي في هذه الحقبة بطابع الفكاهة والظرف واللطافة، وحب النجفيين للنادرة والطريفة والمفاكهة في هذه المرحلة من حياة النجف واتسام الادب النجفي بهذا الطابع الذي تميزت به على كل مدن العراق[١٦] عرفنا سبب حدوث مثل هذه المناقرات والمطارحات والمماحكات الادبية، وسبب

حدوث مثل هذه المحاجة بين ادباء الكوفة والنجف.. وللتدليل على اتسام الادب النجفي في هذه الحقبة بطابع الهزل والفكاهة والطرافة ، نذكر بعض هذه الوقائع باختصار لايضاح حب النجفيين للطرفة والنادرة:

الواقعة الاولى : ماذكرته المصادر من انه حين كان (السيد حيدر الحلي) شاعر الحلة المشهور، مرة يلقي قصيدته في تأبين السيد (جعفر بن السيد مهدي القزويني الكبير ت عام ١٢٩٨هـ/ ١٨٧٢م)[١٧] ، وكان معه رهط من الحليين، جاؤوا لتأبين السيد جعفر، وكان من عادة المستمعين حينذاك ان يستعيدوا ما يسمعونه من الشعر الجيد، والابيات الجيدة، استحسانا للشعر وتقديرا لقائله، ولكن النجفيين بسبب حبهم للنكتة والفكاهة (والمقالب) حتى في مجالس الجد وفي احرج الاوقات، اتفقوا فيما بينهم ان لايستعيدوا من قصيدة السيد حيدر شيئا، واذ يقرأ السيد حيدر قصيدته العصماء في رثاء السيد جعفر - وهو المعروف بجودته في فن الرثاء، بل هو فارس حلبة شعر الرثاء العراقي في هذه الحقبة من الزمن- [١٨]من اولها الى اخرها وجد القوم صامتين، لا يتحركون ولا يهتزون لما يقوله من رثاء بليغ ولا يستحسنون شيئا منها ، ولا يستعيدون منها بيتا واحدا، ادرك انها مكيدة مدبرة، فما ان انهى قصيدته حتى خرج من حفل التأبين غاضبا وتبعه الحليون، ولكن الشاعر النجفي الشيخ محسن الخضري لحق به واعتذر منه، فقال له السيد حيدر: ان كان في المجلس من اعتب عليه فهو انت، فارتجل الشيخ الخضري هذين البيتين معتذرا من السيد حيدر قائلا:

ميزتني بالعتب دون معاشر ... سمعوا وما حيّ سواي بسامع
أخرستني وتقول مال صامت ... وامتني وتقول مالك لا تعي[١٩]

فهدأت غضبة السيد حيدر، لكن الطريفة اخذت مداها، وشاعت في المجالس والنوادي والاسواق ...

والطريفة الثانية، مما يدلل على حب النجفيين للنكتة والنادرة: حتى في اكثر المواقف جدا وحزما... قيل انه حين كان الشاعر النجفي الكبير السيد محمد سعيد الحبوبي (١٨٤٩ - ١٩١٥م) يحاضر في تلاميذه مرة في الصحن العلوي الشريف في (اللغة) بعدما اجتاز فترة الشباب والشعر واتجه الى التدريس والمحاضرة، في طلاب له في مادة (النحو العربي) وكانت المحاضرة في ادوات التوكيد والتحقيق في اللغة، ان السيد الحبوبي قال لطلابه ضمن المحاضرة:

((ان (قد) اذا دخلت على الفعل المضارع فانها تفيده التقليل)) فاهتبل احد تلاميذه النبهاء الظرفاء الخبثاء هذه السانحة، ورفع اصبعه، وسأل استاذه بأدب واحترام: استاذنا اذا كانت قد تفيد التقليل اذا دخلت على المضارع فماذا تفيد اذا دخلت على العفل الماضي يا سماحة الاستاذ؟)، فأدرك الاستاذ قصد تلميذه، فأجابه بسرعة وفور وارتباك بقوله (ما شربتها وجدي)، لان الاستاذ عرف ان تلميذه يشير الى قوله المشهور في احدى موشحاته:

قد شربت الخمر لكن كلماك ... ما رأت عيني ولا ذاق فمي[٢٠]

وبما ان (قد) تفيد (التحقيق) اذا دخلت على الماضي، عرفنا جمال النكتة في سؤال التلميذ الذكي وخبثه العلمي، وعرفنا ايضا نباهة الاستاذ وسرعة ادراكه لمغزى السؤال...

والطريفة الاخيرة التي نذكرها في هذا المجال بل تذكر مصادر الادب النجفي:

ان احد وجهاء النجف المدعو (سعيد ناجي) طلب من الشاعر جعفر الحلي ان يعمل له عبارة جميلة ينقشها على خاتمه، فعمل له السيد جعفر هذه العبارة التي فيها هذه التورية الجميلة وهي (بحبّ بني النبي سعيد ناجي) ... وفي حينها اشاع النجفييون – حبا للنكتة- : انه كان في النجف وجيه اخر ينافس سعد ناجي في الوجاهة وهو (سعيد عجينة) فأخذه الغيظ والغضب والتحدي فذهب الى احد الصاغة وطلب منه ان ينقش له على خاتم له عبارة على غرارها هي (بحبّ بني النبي سعيد عجينة)[٢١] حيث انه لم يدرك التورية في كلمة ناجي، والا الفرق بين (ناجي وعجينة) ... وانا لا اشك في ان هذه الطرفة موضوعة، ولكن وضعها على هذا الشكل يدل على حب الفكاهة والنكتة لدى النجفيين في هذه الحقبة من الزمن.

Abstract

Kufa is the one of the greatest Arab capitals in the Arabic and Islamic renaissance, and Najaf is its successor, and they like as one country and one complements the other, and the relationships between the writers of Najaf and Kufa is very strong in the modern or in the past, and the Najafi literature which is talk about kufa is abundant and knowledge about it makes a huge book, and there are also many of kufa writers whose write about the importance of Najaf and its religious, cultural and literary position.

They told that the lands of Kufa extend to Najaf and the Najaf lands extend to Kufa, so that it was very common that Najaf writers studied Kufa and their staying in it or for vacation or for tourism and trading and they had nice memories about their staying in it, and they had many literary recrimination and debates in it in form of jokes and quarrels brotherhood, and the Kufa writers may respond to them by the same or sometimes more

These relationships are the subject of this research, trying to explain the importance of Kufa in Najafi writers and what they wrote to describe its landscapes, board's literature, fun days and picnics on the shores of Euphrates in Kufa, because the school of Najaf in literature and grammar in the undeveloped ages is the old famous Kufa school historically, and in modern, Kufa became the lung that the Najafi breathe through it. The landscapes of Kufa, its place on Euphrates and its orchards were the best place of Najafi people; they took vacations to it in most of the days in the year, and they held the board literature on shores of Euphrates and compete by poetry, it was the source of imagination to Najafi writers and the made nice picture in summer and Kufa was the summering of Najaf, and moreover, they also go it even in winter.

هوامش البحث ومصادره

(١) شعراء الغري - علي الخاقاني ج١/ص٢ -المط الحيدرية- النجف - صـ١/١٩٤٥، ج٦/ ١٩٥٤ ، ج١٩٥٥/٧.

(٢) شعراء الغري ج١/ ٨

(٣) شعراء الغري ج١/ ٩.

(٤) المصدر نفسه ١/ ص٨

(٥) المصدر نفسه ١/ ص١٠.

(٦) الشبيبي الكبير - حمود الحمادي - ص ٢٠٨ مطبعة النعمان النجف ١٩٧٢.

(٧) الشبيبي الكبير / ص٣١٣، شعراء الغري ١/ ٣٨٤.

(٨) الشبيبي الكبير ٣١٥.

(٩) الشبيبي الكبير ٣١١- ٣١٢.

(١٠) ديوان محسن الخضري (ت ١٨٨٤م) ص ١٧٨. المطبعة العلمية - النجف ١٩٤٧.

(١١) مدينة النجف الكبرى - د. محسن عبد الصاحب المظفر/ ص٣٢ ، دار الرشيد للنشر - بغداد ١٩٨٢.

(١٢) اعيان الشيعة - السيد محسن الامين ٧/ ٢١٣ دمشق ١٩٤٥.

(١٣) ينظر: ترجمة الشيخ علي الشرقي وحياته وثقافته - في : (الشيخ علي الشرقي - حياته وادبه) عبد الحسين مهدي عواد ص ٢٦-٦٠ بغداد ١٩٨١.

(١٤) ديوان علي الشرقي - ص ٢٢٧- ٢٣٠ وزارة الثقافة والفنون - بغداد ١٩٧٩.

(١٥) انظر هذه المناظرة كاملة في : شعراء الغري ٣٧٠/٦ -٣٧١.

(١٦) ظاهرة الفكاهة والغزل في الشعر النجفي في القرن االتاسع عشر د. محمد حسن علي مجيد في (مجلة اداب المستنصرية) - العدد /١٠ لسنة ١٩٨٤ - ص ٨٩- ١٣٦، و: اثر البيئة في ادب المدن العراقية في القرن التاسع عشر د. محمد حسن علي مجيد - ص٤٨- ٩٠، بغداد ١٩٩٨ .

(١٧) انظر رائعة السيد حيدر في ديوانه ج١٢٢/٢ مطبعة المعارف - بغداد ١٩٦٤.

(١٨) انظر - نهضة العراق الادبية في القرن التاسع عشر د. محمد مهدي البصير - مطبعة المعارف - بغداد ١٩٤٦.

(١٩) نهضة العراق الادبية في القرن التاسع عش - ص٤٣- ٤٤، و : شعراء الغري ٧/ ٢١٧.

(٢٠) الموشحات العراقية منذ نشأتها حتى نهاية القرن التاسع عشر د. رضا محسن القريشي - دار الرشيد للنشر - بغداد ١٩٨١ اما قصيدة الحبوبي التي منها هذا البيت في ديوان محمد سعيد الحبوبي ص ١٩١ - ط وزارة الثقافة والاعلام- بغداد ١٩٨٠ .

(٢١) انظر : اثر البيئة في ادب المدن العراقية/ ص ٧٣، و - ظاهرة الفكاهة والغزل في الشعر النجفي/ مجلة اداب المستنصرية/ ص١٠١ ، والعوامل التي جعلت من النجف بيئة شعرية - جعفر الخليلي / ص٤٦ - ط النجف ١٩٧٠.